الوظائف الدلالية للتنويع في الصيغ الفعلية ذات الجذر اللغوي الواحد (نماذج من القرآن الكريم)

الأستاذ: عزوز ميلود
جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر.

ملخّص المقال:

يستعمل القرآن الكريم صيغاً فعلية و ينوِّع في توظيفها لمتطلبات دلالية ، إذ يوظف بعض الأفعال بتغيّرات في بنيتها الصرفية في مواقف متنوعة، و يكون هذا التنويع انطلاقا من الجذر اللغوي الذي تنتمي إليه تلك الكلمة و ليس خارجا عنها كالإتيان بمرادف لها من المفردات التي تقوم مقامها أو تؤدي وظيفتها الإيحائية، والتناسب الدلالي هو الفيصل في هذا التنوُّع الوظيفي، و من هذه الزاوية تكون وقفاتنا في توضيح حكمة اختصاص كل آية تُوَظَّف فيها صيغ فعلية من أصل اشتقاقي واحد بتغييرات في بنيتها الصرفية، متتبعين الفروق الدلالية التي تحدثها هذه التغييرات، ناقلين بعض آراء علمائنا الذين استوقفتهم هذه التنوّعات في توظيف الصيغ، قصد الاقتراب من خصوصية لغة القرآن التي تستعمل اللفظ بدقة متناهية تصيب أكباد المعاني.

مقدمة:

علم الصرف هو العلم الذي تعرف به أقسام الكلام و هيئته، " فالأبنية الصرفية هي مجموعة من الأبنية اللغوية يعود بعضها إلى طبيعة تقسيم الكلمة نوعاً و جنساً و عدداً و يعود بعضها الآخر إلى طبيعة العلاقة بين التركيب النحوي و البناء الصرفي للكلمة المعينة أو لبعض الكلمات التي يتشكل منها التركيب كما هو الحال

في البناء للمجهول و الممنوع من الصرف و إعمال بعض المشتقات و ما يتمخض عن كل منهما من أحكام بنائية"[1]. وما يتبع ذلك من فروق في الدلالة.

إن محاولة البحث في الفروق الدلالية بين الصيّغ الفعلية المشتقة من جذر لغوي واحد يتحدد بثلاثة عناصر[2]:الأول: مادة الكلمة و الجذر الثلاثي لها، و هو أساس معناها، و الثاني: صيغة الكلمة الاشتقاقية، فعلاً أو اسم فاعل أو صيغة مبالغة، و الثالث: موضوع و هدف السياق الذي وردت فيه.

إن المتمعِّن في كلام الله تستوقفه بعض التنويعات بين الصيغ الفعلية التي تثير في الأذهان نشاطات فكرية تبعث على البحث و الاجتهاد في طلب الوقوف على خصائص الألفاظ التي تتناسب مع السياقات التي تتطلبها المواقف، و من ذلك توظيف القرآن الكريم لصيغتي: " فَعَّلَ " و " أفْعَلَ "، من أصل اشتقاقي واحد، ولكن بينها فروقا دلالية دقيقة قد لا يتنبَّه إليها القارئ العادي إلا بعد الوقوف على أسرار هذه اللغة الشريفة اللطيفة، وهذا الموقف يلحُّ علينا و نحن نتدبر القرآن أن ننظر في الفروق بين مثل هذه الصيغ لنفقه الآيات و نستجلي الأبعاد و نغوص في الأعماق مع أرباب العربية الذين وقفوا على دقائقها و أسرارها، و من بين هذه النماذج:

([1]) علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: هادي نهر، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن ، ط: 1، 1429هـ/2008م، ص: 55.

([2]) ينظر: سر الإعجاز البياني في القرآن: عودة اللّه القيسي, دار النشر, عمان، الأردن, ط:01, 1996، ص: 328.

1)- (**نَزَّلَ و أنْزَلَ**)، وقد استعملهما القرآن الكريم في آية واحدة ولكن الوظيفتان للصيغتين مختلفتان، يقول الله سبحانه و تعالى: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ** ﴾ [3].

وظف القرآن " نزَّل " و " أنزل "، مع اقتران صيغة نزَّل بالقرآن الكريم (الكتاب) و اقتران صيغة أنزل بسياق إنزال التوراة و الإنجيل فما البعد الدلالي لهذا التوظيف؟

إن القرآن الكريم يختار الصيغة المناسبة للدلالة على الحدث في دقة منقطعة النظير، و تأسيساً على هذا سنحاول الوقوف على هذه التنويعات في الصيغ الفعلية لبيان ما تحمله من إيحاءات دلالية و جمالية ، و ما يتبع هذا التنويع من فروق لغوية دقيقة، وفي بداية الأمر ننطلق مما تعارف عليه علماء اللغة و بخاصة علماء الصرف الذين فرَّقوا بين الفعلين على أساس اعتماد الزيادة الصرفية كمحوِّل للدلالة، فقد قالوا :" إن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى"، " ...فإذا كانت الألفاظ أدلة على المعاني ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به"[4]، "فصيغة فعَّل للمبالغة و التكثير و زيادة المعنى، و هذا مما "يناسب القرآن الكريم الذي نزل منجماً على فترة زمنية محددة بثلاث و عشرين سنة، بخلاف التوراة و الإنجيل اللَّذينِ نزلا دفعة واحدة ، و لذا تمت المخالفة هنا في السياق التوظيفي للفعلين على إرادة المبالغة في جانب فَعَّل و إرادة معنى النزول فقط في صيغة أفعل"[5] .

([3]) آل عمران:03.

([4])الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني: تحقيق محمد علي النجار،المكتبة العلمية،لبنان،ط1: 1952،ج3، ص: 268.

([5]) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري، تح:مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط:3، 1407 هـ -1987م، ج 1، ص: 174.

و هذا التفسير الذي قال به الزمخشري إنما اعتمد في جوهره على المعطى الصرفي و استثمار مدلولاته دون ربط هذا المعطى بالسياقات النصية في مواقعها المختلفة، كما ألغى القرائن المتعلقة بالتفسير و التأويل، لأن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لابد أن تُفسَّر بكل المستويات اللغوية، وأن تُستَثْمَرَ كل الأعراف اللغوية المتواترة عن العرب، كما يجب الاستعانة بقرائن الأحوال غير اللغوية، ذلك أننا في الكثير من المواقف نصادف حالات مشابهة لتلك التي مرَّت معنا ولا يكون التفسير واحداً، فقد عبر القرآن الكريم عن إنزال القرآن بصيغة " أنزل " التي لا تدل على معنى المبالغة و الكثرة، و ذلك في قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** [6]، و قوله تعالى: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [7]، فكيف نثبت أن الإنزال هنا كان دفعة واحدة، و هذا في جانب القرآن الكريم؟.

يجيب الراغب الأصفهاني: " الفرق بين الإنزال و التنزيل في وصف القرآن و الملائكة، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مُفرَّقا، و الإنزال عام[8].

و تأسيساً على هذا يكون معنى التدرج و التكرار في الإنزال مما يستفاد من التعبير بصيغة نَزَّلَ، لأنها تقتضي الإنزال مرة بعد الأخرى، و على هذا فإن معنى المبالغة، و معنى التكرار و التدرج في الإنزال هما سمة مميزة لهذه الصيغة.

يقول ابن الزبير: " إن لفظ نَزَّلَ يقتضي التكرار لأجل التضعيف"[9].

([6]) العنكبوت: 51

([7]) محمد: 09.

([8])المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني, ج2, ص194.

([9]) ملاك التأويل: ابن الزبير, ج1, ص141.

و بهذا التصور يكون لصيغة " نَزَّلَ " أربع دلالات تتمثل في: المبالغة، التكثير، التدرج، و التكرار، و ذلك بخلاف صيغة أنزل التي تقف حدودها الدلالية عند عمومية الإنزال و شموليته.

إن التنويع في هاتين الصيغتين إنما تحدده المقامات السياقية التي تتطلب مثل هذا التوظيف أو ذاك، فمن المناسب أن قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ [10] أليق للدلالة على أن إنزال القرآن الكريم الذي تم في هذه الليلة كان دفعة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ، و لا يناسب التعبير هنا إلا صيغة : " أَنْزَلَ " التي تقوم بهذه الدلالة بخلاف صيغة: " نَزَّلَ " التي تقتضي زمناً أطول، و هذا ما لا يتناسب مع معنى الإنزال الذي سبقت الإشارة إليه آنفا.

و الكلام ينطبق على توظيف كلمة " أنزل " بدلا من : " نزَّل " عند الحديث على إنزال الحديد إلى الأرض، لأن هذا في حقيقة الأمر تم دفعة واحدة في مرحلة الخلق كما في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [11].

و العلم الحديث يؤكد هذا الرأي الذي أثبت أنه من المستحيل أن تتشكل جزيئات الحديد على الأرض في هذه الظروف الطبيعية، فعملية انصهاره تتطلب[12] درجات حرارة عالية جدا، يقول عبد المجيد الزنداني مؤكداً هذه الفكرة: " التعبير هنا بكلمة أنزل دقيق ينسق مع معطيات العلم الحديث التي تؤكد استحالة تكوُن الحديد على سطح الكرة الأرضية، ذلك لأن اندماج ذريتين من هذا العنصر يتطلب فوق ثلاثة ملايين درجة حرارة مئوية فقط لاندماج ذريتين منه، فكيف بهذه

([10]) القدر: 01.

([11]) الحديد: 25.

[12]

الكميات الهائلة التي تشعل باطن الأرض؟ و ليس على سطح الكرة الأرضية وجود لمثل هذه الطاقة الهائلة و المطاوية لمثل هذه الاندماجات، لذا لابد من الإقرار بأن هذا العنصر لم يتكون على سطح الأرض بل هو مترل إليها"[13].

2) – (**جَرَحَ واجْتَرَحَ**) وقد استعملهما القرآن الكريم في آية واحدة كذلك ولكن اختلفت الوظيفتان للصيغتين ، يقول الله سبحانه عز و جل في سورة الأنعام: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[14] و قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾[15].

فقد وظف النص القرآني في الآيتين فعلين هما: "جرحوا" في آية سورة الأنعام، و هو ثلاثي صحيح على وزن " فعل "، و" اجترحوا " في آية سورة الجاثية، و هو خماسي على وزن " افْتَعَلَ " مزيد بالهمزة و التاء، و كلاهما يعود إلى جذر لغوي واحد و هو مادة جرح، الدالة على الكسب، قال أحمد بن فارس (ت 395هـ) "... فَالأَوَّلُ قَوْلُهُمْ [اجْتَرَحَ] إِذَا عَمِلَ وَكَسَبَ... وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ اجْتِرَاحًا لِأَنَّهُ عَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، وَهِيَ الْأَعْضَاءُ الْكَوَاسِبُ. وَالْجَوَارِحُ مِنَ الطَّيْرِ

([13]) القرآن و العلم: عبد المجيد الزنداني, دار القلم للنشر و التوزيع, دمشق، سوريا, ط12, 1999, ص:113.

([14])الأنعام: 60

([15])الجاثية: 21

وَالسِّبَاعِ: ذَوَاتُ الصَّيْدِ..."[16] و الإشكالية الدلالية هي: ما سبب هذا التنويع و ما أبعاده الإيحائية في الآيتين؟

لمعرفة الإجابة عن هذه الإشكالية اللغوية نفتش في تراثنا عن التخريجات الدلالية التي قدمها علماؤنا، ونقف مع الراغب الأصفهاني الذي كان مولعاً بالتدقيق اللغوي عامة و بموضوع الفروق على الخصوص، فقد ذكر في مقدمة كتابه " المفردات في غريب القرآن" بأنه سيتبعه بكتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة... مما يعده من لا يُحِقُّ الحق ويُبطِل الباطل أنه باب واحد،[17] و قد وقف على دلالة هذا التغاير الصرفي في الآية المستشهد بها آنفاً قائلاً: " الجرح أثر دام في الجلد، يقال جرحه جرحاً، فهو جريح و مجروح، و تسمى الصائدة من الكلاب و الفهود و الطيور جارحة، و جمعها جوارح، إما لأنها تجرح و إما لأنها تكتسب، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ .. **وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ**... ﴾[18] و سميت الأعضاء الكاسبة جوارح تشبهاً بها لأحد هذين الأمرين[19]. و الاجتراح: اكتساب الإثم و أصله من الجراحة[20].

و لاستجلاء المعاني الخفية وراء هذا التنويع نقترب من سياقات كل فعل في الآية التي وظف فيها، فالحديث في آية سورة الأنعام على الخطاب العام للناس

([16]) معجم مقاييس اللغة:أحمد بن فارس، تح:عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979،ج2، ص: 124، مادة: "جرح ".

([17]) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني, تحقيق محمد سيد كيلاني, القاهرة، مصر, ط1, 1961, ج:1، مقدمة الكتاب، ص: س.

([18]) المائدة: 04

([19]) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني, ص:86.

([20]) المصدر نفسه.

جميعاً، و استعراض ما أفاض اللّه به عليهم من نعمه العظيمة مثل النوم بالليل، و الحركة و السعي و الكسب بالنهار، و ما يؤديه ذلك من جراح لأنفسهم بكسب الأفعال بكل الجوارح، و هذه الأفعال قد تكون شراً أو خيراً، و لذا نجد التعبير الدقيق الآية ب(ما) الموصولة التي تدل على العموم أيضاً، مما يشيع جواً من هذا العموم للناس جميعاً دون اختصاص طائفة بهذا الخطاب.

أما الحديث في آية سورة الجاثية فيدل على المفارقة، إذ الخطاب لأهل الكفر في سياق التقريع و التوبيخ لهم، و التهكم من ظنهم المساواة مع أهل الإيمان، إذ كيف يكون هذا و أهل الكفر قد اجترحوا السيئات، فالافتعال هنا طلب و بحث و حرص على هذا الاجتراح، و هذه قصديه واضحة تميز هذا المسعى للإثم.

و لذا كان الراغب الأصفهاني ثاقب النظر حينما وقف على دلالة الاجتراح بأنه اكتساب الإثم بقوله:"... كما أن الجرح في سورة الأنعام عام يضم اكتساب الخير و الشر دون تحديد لأنه كسب الجوارح في أثناء السعي بالنهار، أما الاجتراح فهو خاص باكتساب السيئات من جانب أهل الكفر و الفسوق"[21]، و هذا هو مناط الاجتراح، فلما كانت السيئة ثقيلة، و فيها تكلّف زيد في لفظ فعلها لتقدم وظيفتها الدلالية وفقا لمقتضيات السياق المراد من الله سبحانه و تعالى .

3) – (**كَسَبَ و اكْتَسَبَ**) وقد وظفهما القرآن الكريم في آية واحدة كذلك مع اختلاف الوظيفتن، يقول المولى سبحانه و تعالى: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[22].

([21]) فتح الرحمن بكشف ما يلتمس في القرآن: الأنصاري، تحقيق إيهاب محمد, دار الكتاب الجامعي, القاهرة مصر, ط1, 1987,ص:44.

([22]) البقرة: 285.

نواصل مع الراغب الأصفهاني الذي يستوقفه هذا التنويع في توظيف الصيغ الفعلية ذات الأصل الاشتقاقي الواحد، ويدلنا على الفروق الدلالية بين ما جُرِّدَ من حروف الزيادة و ما زيد فيه في صيغة: "كسب " و " اكتسب" ، يقول الراغب الأصفهاني:" الكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، و تحصيل حظ، ككسب المال، و قد يستعمل فيها يظن الإنسان أنه يجلب به منفعة، ثم اجتلب به مضرة. و الكسب يقال فيها أخذه لنفسه أو لغيره، و لهذا قد يتعدى إلى مفعولين فيقال: كسب فلاناً كذا، و الاكتساب لا يقال إلا فيها استفادته لنفسك، فكل اكتساب كسب، و ليس كل كسب اكتساب"[23]، فالكسب للخير باعتباره فطرياً تألفه النفس جبلَّة و لا تتكلَّفه على خلاف اكتسب التي هي للافتعال المخالف للفطر السليمة.

و للاستزادة نتوقف مع الإمام الأنصاري الذي يورد الفرق الدلالي بين " كسب " و " اكتسب" من زاوية لغوية أخرى في قوله: "لها ما كسبت" أي في الخير، "وعليها ما اكتسبت" أي في الشر، فإن قلت: ما الدليل على أن الأول للخير و الثاني للشر؟، قلت: اللام في الأول، و على في الثاني، لأنهما يستعملان لذلك عند تقاربهما"[24].

تصيَّد الأنصاري الدلالة من توظيف حروف المعاني المستعملة في الآية، و استدل هنا بحرف الجر الموظف مع كل فعل؛ فالكسب للخير لأنه– في رأي الإمام الأنصاري– قد تعدى بحرف الجر اللام، في حين أن الاكتساب للشر لأنه قد تعدى بحرف الجر على.

([23]) المفردات في غريب القرآن:الراغب الأصفهاني, ص:141.

([24]) المصدر نفسه، ص:86.

و يتناول ابن أبي الأصبع هذه الآية بالتحليل من جهة ما يستفاد من الزيادة في الفعل، يقول: "كان يمكن أن تأتي اللفظتان بغير زيادة فيقال: "لها ما كسبت و عليها ما كسبت"، و إنما ما منع من ذلك ما يجعل للنظم من العيب، و إغماض المعنى الذي قصد، أما العيب فاستثقال تكرار اللفظة (كسب) بغير زيادة، في نظم قريب فيه الثانية من الأولى فسمج. و أما الإغماض فلأن المراد الإشارة إلى الفطرة التي فطر اللّه سبحانه و تعالى الناس عليها، فطرة الخير، فالإنسان بتلك الفطرة المشار إليها سابقاً وأنها أصل في الخلق، لا يحسن أن ينسب إليه إلا كسب الحسنات، وما يعمله من السيئات فيعمله لمخالفته الفطرة، فكأنه تكلف من ذلك ما ليس في جبلّته، فوجب زيادة التاء التي للافتعال، فحصلت بزيادته إماطة العيب عن النظم لمخالفة إحدى اللفظتين أختها، و الإشارة إلى المعنى المراد"[25]، فصيغة " افتعل "كما في العرف الصرفي تفيد المبالغة و الاجتهاد و الطلب بخلاف صيغة "فعل "،كما أن لفظ الاكتساب يشعر المشقة و المبالغة في جانب السيئة لثقلها على النفس " و الاكتساب فيه اعتمال، و الشر تشتهيه النفس، و تنجذب إليه، فكانت أجد في تحصيله بخلاف الخير، و لأن في ذلك إشارة إلى كرم اللّه تعالى و تفضله على الخلق حيث أثابهم على فعل الخير من غير جد و اعتمال، و لم يؤاخذهم على فعل الشر إلا بالجد الاعتمال"[26]

إننا نلاحظ أن هذا التنويع الذي حدث في التغيير لصيغ الأفعال كان مقصده فتح باب الدلالة و التأويل، و كسر أفق التوقعات لهذا الأسلوب بتوظيف ما يخالف الظن في السياق، إرادة لمقاصد دلالية هي المبتغى من مثل هذا التوظيف.

([25]) بديع القرآن: ابن أبي الأصبع, تقديم و تحقيق حنفي محمد شرف, نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع (د.ط) (د.ت) ص:305.

([26]) فتح الرحمن بكشف ما يلتمس في القرآن: الأنصاري، ص:45.

3) – (**اِسْطَاعَ و اِسْتَطَاعَ**) وقد وردتا في آية واحدة من القرآن الكريم ، يقول الله سبحانه و تعالى: ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ [27].

فقد وظّف القرآن الكريم في هذه الآية فعلين هما (اسطاعوا) و (استطاعوا)، و كلاهما يعود إلى جذر لغوي واحد هو مادة "طَوَعَ ".

يستوقفنا الراغب الأصفهاني عند لافتة دلالية لهذا التوظيف و أبعادها الإيحائية بقوله:"الاستطاعة استفالة من الطوع، و ذلك وجود ما يصير به الفعل متأتيا و هي عند المحققين اسم للمعاني التي يتمكن بها الإنسان مما يريده من إحداث الفعل. و هي أربعة أشياء: بنية مخصوصة للفاعل، و تصور للفعل، و مادة قابلة لتأثيره، و آلة إن كان الفعل آليا كالكتابة".[28]

أما الخطيب الإسكافي (ت 420 هـــ) فيرى " أن الصيغة الثانية تعدت إلى اسم و هو قوله: نقباً، فاحتمل أن يتم لفظها. أما الأولى فإنها بتعلق مكان مفعولها بأن و الفعل بعدها، و هي أربعة أشياء: أن و الفعل و الفاعل و المفعول الذي هو الهاء مما خفف متعلقها. فثقل لفظ استطاعوا و كان يجوز تخفيفه حيث لا يفارقه ما يزيده ثقلا فلما اجتمع الثقيلان، واحتملت الأولى التخفيف، ألزم الأول دون الثاني".[29]

و يوجه ابن الزبير إلى لفتة سياقية يفسر من خلالها هذا التغاير في إيراد صيغتين لفعل واحد في الآية الكريمة إذ يقول: "لا شك أن الظهور عليهم أيسر من

([27]) الكهف:97

([28]) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ج :2 ، ص: 34.

([29]) درة التنزيل و غرة التأويل: الإسكافي، تح: محمد آبدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ط:1 ، 2002، ص : 884.

النقب، والنقب أشق عليهم و أثقل، فجيء بالفعل خفيفا مع الأخف، و جيء به مستوفياً مع الأثقل فتناسب و لو قدر بالعكس لما تناسب "[30].

وهذا يتطابق مع حكم العقل و المنطق، إن الصعود على السد المصنوع من رماد الجبل و زبر الحديد و النحاس المذاب أيسر عليهم، و يتطلب زمنا أقصر من إحداث ثقب في جسد مثل هذا السد المنيع، فناسب بالحذف من الفعل الأول ليجانس الحدث و الزمن المستغرق لإنجازه و ذلك بخلاف الحدث الثاني لطول الزمن المستغرق في إنجازه، ومشقة هذا الإنجاز، مما ناسب معه الإتيان بالفعل في هيئته الفعلية الطويلة والكمية الصوتية الإضافية .

و قد استحسن حسن طبل هذه التأويلات في تفسير سبب تغاير الصيغتين للفعل، كما أن الصيغتين تحلان في ذاتهما لونا من الإعجاز يتمثل في ورود " كل منهما في سياق النفي أي: العجز، غير أن العجز في ما استطاعوا هو العجز عن الشيء بعد التعلق به، و تكلف محاولته، و بذل الجهد في سبيل تحقيقه، أما العجز في –فما استطاعوا– فهو العجز الموئس الذي يئد في النفس بواعث الأمل في الحصول على المراد، يصرفها كلية عن التعلق به، أو بذل أي شيء أو جهد في سبيل تحقيقه"[31].

و ما ذهب إليه حسن طبل تأويل دقيق ينسجم مع هيئة السد الذي هو غاية في الارتفاع، لأنه بين جبلين، و غاية في المنعة و الملاسة لقوة و ملاسة مبناه، فبذلك يكون هناك يأس من محاولته تسلقه، و لذا جاء العجز عن الفعل مستفاداً من نفي الاستطاعة بقوله:" فما استطاعوا " مناسبا لهذا العجز، في حين جاء العجز

([30]) ملاك التتزيل: ابن الزبير, , دار الكتب العلمية, بيروت، لبنان, ط:01, 1996, ج2، ص:665.

([31])أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: حسن طبل, دار الفكر العربي, القاهرة، مصر, ط1, 1998, ص:95.

الآخر قابلا للمحاولة، فعبر في جانبه بالفعل كاملا مع نفيه دلالة على هذا العجز فقال: " و ما استطاعوا ".

4) – (**بَدَأَ و أَبْدَأَ**) وقد وظفهما القرآن في آيتين مختلفتين و بوظيفتين دلالتين مختلفتين أيضا، في قوله تعالى: ﴿ **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4)** ﴾[32]. وقوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[33] .

وظف القرآن الكريم في الآيتين فعلين هما:" يَبْدَأ " على وزن "يَفْعَلُ" و ماضيه "فَعَلَ" و "يُبدِئ"على وزن "يُفعِلُ "و ماضيه "أَفعَلَ"، و هما من جذر لغوي واحد هو "البَدءُ"، غير أنهما لا يعودان إلى صيغة اشتقاقية واحدة، فالفعل يَبدَأُ هو مضارع الثلاثي بدأ، نقول: بَدَأَ، يَبْدَأُ، بَدأً، و الفعل يُبدِئ رباعي، نقول: أَبْدَأ، يُبْدِي، إبداءً، و قد ورد في القرآن الكريم في ستة مواضع[34] ، و المتأمل في صياغتها يدرك أنها تدور جميعها على سياق بدء الخلق و إعادته مرة أخرى، و عن نفي هذه القدرة عن غير سوى الله سبحانه عز و جل.

يدور الحديث في الآيات المستشهد بها على معنى ابتداء الخلق ثم إعادته مرة أخرى، و الأنسب و الأليق للدلالة على ذلك توظيف الفعل "يبدأ" الذي

([32]) يونس: 04.

([33]) العنكبوت: 19-20.

([34]) المعجم المفهرس: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1994، ص: 141.

ماضيه الثلاثي " بدأ " بخلاف الفعل " يُبْدئ" الذي ورد في ثلاثة مواضع فقط في القرآن الكريم هي:

1) قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [35]

2) قوله تعالى: ﴿ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** ﴾ [36]

3) قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** ﴾ [37] .

إن المتأمل لسياق هذه الآيات الكريمات يقف عند الوظيفة الدلالية للفعل" يُبْدئ" التي هي إعادة الخلق مرة أخرى، و هذا ليس ابتداء للخلق بل هو استئناف له. و تأكيدا على هذا يقول ابن جزي: " ...المعنى أو لم ير الكفار أن الله خلق الخلق، فيستدلون على الإعادة في النشر، فالمعنى هنا على أن الله يُبْدئ الخلق أي: يستأنف الخلق الأول الموجود و يستدل على ذلك أن الله تعالى قال في سورة العنكبوت: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ ثم عقب ذلك قال في الآية اللاحقة:﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾، فدل بتوظيف الفعل بدأ في الآية اللاحقة على أن الخلق هنا ابتداء، وفي الآية السابقة بتوظيف الفعل يبدئ على الخلق فيها استئناف"[38].

([35]) العنكبوت:19-20.

([36]) سبأ: 49

([37]) البروج: 13.

([38]) التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي, تحقيق محمد سالم الهاشم, دار الكتب العلمية, بيروت، لبنان, ط:1, 2007, ص:249.

و الخطاب القرآني يفرق بين التوظيف الدلالي للفعلين، إذ يجعل الفعل " يبدأ " موظفا في السياقات الدالة على ابتداء الخلق من العدم، في حين يجعل من توظيف الفعل " يُبدِئ " دلالة على إعادة الخلق بعد إفنائه، فاختلفت الصيغتان باختلاف وظيفتهما الدلالية، و هذه التنويعات كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم، وقفنا عند نماذج منها قصد محاولة الوقوف على بعض أسرار لغة القرآن التي لا تبوح بكل شيء دفعة واحدة.

خلاصة المقال: و في ختام هذه الصفحات لا نقول إن هذه هي مواطن الإعجاز الصرفي كلها، و إنما هي ملامح و دلائل تأخذ باليد و تدل القارئ على أن هذا القرآن قد وضع الله فيه كل حرف في موضعه ليقدم وظيفة دلالية لا يقوم بها غيره، و كل مفردة قد وضعت في مكانها الأليق بها و المناسب للسياق الذي تُوظَّف فيه، وكل تركيب قد أحكم نسجه إحكاما فريداً لا يشابهه كلام و لا يرقى إليه حديث، وللاقتراب من دلالة النص القرآني لابد من توظيف كل الطاقات التفسيرية اللغوية منها و غير اللغوية، ولعلم الصرف فيها نصيب وافر ذلك أنه" ما انتظم عقد علم إلا و الصرف واسطته، و لا ارتفع مناره إلا و هو قاعدته، إذ هو إحدى دعائم الأدب و به تُعْرف سعة كلام العرب، و تنجلي فرائد مفردات الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية" [39].

مصادر و مراجع المقال:

القرآن الكريم

1- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، ط1، 1998.

[39] – الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني، ج2: 487.

2- بديع القرآن: ابن أبي الأصبع، تقديم و تحقيق حنفي محمد شرف، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع (د.ط، د.ت).

3- التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي، تحقيق محمد سالم الهاشم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2007.

4- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني: تحقيق محمد علي النجار،المكتبة العلمية،لبنان،ط1: 1952،ج3.

5- درة التنزيل و غرة التأويل: الإسكافي، تحقيق: محمد آبدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ط:1 ، 2002.

6- سر الإعجاز البياني في القرآن: عودة اللّه القيسي، دار النشر، عمان، الأردن، ط:01، 1996.

7- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: هادي نهر، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن ، ط 1، 1429هـ/2008.

8- فتح الرحمن بكشف ما يلتمس في القرآن: الأنصاري، تحقيق إيهاب محمد، دار الكتاب الجامعي، القاهرة مصر، ط1، 1987.

9- القرآن و العلم: عبد المجيد الزنداني، دار القلم للنشر و التوزيع، دمشق سوريا، ط12، 1999.

10- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق:مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب الغربي، بيروت،لبنان، ط:3، 1407 هـ -1987م، ج 1.